تقديم

بقلم صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
وزير الأوقاف وشئون الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم . . . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين ، وبعد :

فيقول الله سبحانه وتعالى :

(لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

* * *

ولقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته بعد أن أعده الله سبحانه لتلقيها ، إن الأنبياء والرسل يعدّهم الله سبحانه قبل ميلادهم ، إنه يعدهم فى أصلاب الآباء والأجداد بالعِرْقِ الطاهر ، والميراث النقى . . . إنهم خيار من خيار من خيار . . .

يروى الإمام مسلم — بسنده — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشًا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

لقد اصطفاه الله من بنى هاشم ، واصطنعه لنفسه ، ورباه على عينه . . لقد رباه سبحانه من قبل الميلاد ، ومن بعد الميلاد ، ليحمل الرسالة الكبرى ، الرسالة العامة الخاتمة ، رسالة الإسلام .

ورسالة الإسلام : طابعها وشعارها وجوهرها ، إنما هو: إسلام الوجه لله ، هو السجود لله وحده ، هو : إياك نعبد وإياك نستعين ، إنه التوحيد ، أو هو الإسلام .

فكلمة الإسلام : تتضمن هذه المعانى التى تتحدد وتتبلور ، برغم اختلاف الحروف والنطق ، لتلتقى كلها منصهرة فى كلمة : الإسلام .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعد من قبل الميلاد لحمل رسالة الإسلام ، وكان يعد من بعد الميلاد لحمل الرسالة : الإسلام .

ولقد سارت حياته بعد الميلاد على الطهر والنقاء ، وكان أول رمز جميل يعبر عن هذه الحياة ، حياة الصفاء والطهر : إنما هو رمز : « شق الصدر » .

وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، منذ الطفولة المبكرة ، لقد كان صلوات الله وسلامه عليه — إذ ذاك — فى بادية بنى سعد ، عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان — على ما يروى الإمام مسلم — أتاه جبريل فأخذه فأضجعه فشق عن قلبه ، فاستخرج منه علقة ، فقال : « هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه » .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه — يعنى مرضعته — يقولون إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريباً .

وهذا الحادث : إنما يرمز إلى أنه — صلوات الله وسلامه عليه — قد طهره الله منذ الطفولة من حظ الشيطان ، وصدق بذلك قسم والدته حينما قالت لمرضعته : « والله ما للشيطان عليه من سبيل » .

وطُهره واستقامته منذ نشأته ، جعلا العرب يلقبونه بـ « الأمين » ، ولم تكن كلمة الأمين اسمًا له ، ولكنها كانت إذا أطلقت لا تنصرف إلا عليه ، وكانوا يفرحون بحكمه ، ويرضون بتحكيمه .

يقول الربيع بن خيثم : « كان يتحاكم إلى رسول الله ، فى الجاهلية قبل الإسلام ، ثم اختص فى الإسلام » ، ومن الأمثلة المشهورة فى ذلك : قضاؤه صلى الله عليه وسلم فى الخلاف الذى كان بين قريش بشأن وضع الحجر الأسود ، فإنهم حينما انتهوا فى بناء الكعبة إلى حيث يوضع الركن من البيت ، قالت كل

قبيلة : « نحن أحق بوضعه » ، واختلفوا ، حتى خافوا القتال، ثم جعلوا حكماً بينهم أول من يدخل من باب بنى شيبة فيكون هو الذى يقضى بينهم ، وقالوا : رضينا وسلمنا بذلك . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من دخل من باب بنى شيبة ، فلما رأوه قالوا : هذا هو الأمين ، قد رضينا بما يقضى بيننا، ثم أخبروه الخبر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه ، وبسطه فى الأرض ، ثم وضع الركن فيه ، ثم قال : ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل ، فكان فى ربع بنى عبد مناف : عتبة بن ربيعة ، وكان فى الربع الثانى : أبو زمعة ، وكان فى الربع الثالث : أبوحذيفة بن المغيرة ، وكان فى الربع الرابع : قيس بن عدى ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ، ثم ارفعوه جميعًا » فرفعوه، ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى موضعه ذلك .

وهذه الحياة الطاهرة ، رافقها شعور مرهف بحب الله سبحانه ، والسجود له ، وتوحيده وإسلام الوجه له . . . وهذا الشعور حبب إليه الخلوة ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه — أى : يتعبد — الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها .

وكان صلوات الله وسلامه عليه ، يغادر مكة منغمسة فى الضلال ، ليعتكف فى غار حراء متعبداً ، حتى قالت العرب : « إن محمداً قد عشق ربه » .

واستمر الأمر على هذا النسق — من الاعتكاف والعبودية — إلى أن كان الوحى ، وكانت كلماته الأولى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) .

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ هذه اللحظة يتحقق بالقرآن فى واقعه وأصبح للقرآن صورتان :

صورة نظرية كلامية : هى هذه النصوص التى توحى .

وصورة واقعية حية تتمثل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثلا كاملا ... حتى ليمكن أن يقال عنه صلى الله عليه وسلم ، إنه كان قرآنًا حيًّا يسير بين الناس .

ولقد قالت السيدة عائشة — رضى الله عنها — تصف خلقه صلى الله عليه وسلم : « كان خُلُقه القرآن » .

وكلمة « الخلق » هنا : إنما تعنى حياته كلها ، لقد كانت حياته كلها قرآنًا ومن أجل ذلك كانت الآيات الكريمة تعبر عن ذلك بوضوح :

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) . .

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) . .

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) .

أما الوصف الذى يجمع كل ذلك فى يقين جازم ، ويبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلص لله بجميع أقطاره ، وأصبح ربانيًّا ، فهو قوله :

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) .

إن حياة الناس تخلص لله — على تفاوت فى هذا الإخلاص — فى بعض الأوقات .

أما حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد خلصت كاملة — فى ليله ونهاره ، فى صمته ونطقه ، فى حركته وسكونه — لله سبحانه . . . ولم تكن حياته وحدها هى التى خلصت لله . . . وإنما كان مماته أيضًا .

ولقد ميزت هذه الآية الكريمة بينه صلى الله عليه وسلم ، وبين بقية البشر . . . وصدق فيه قول الإمام البوصيرى — طيب الله ثراه ، وجزاه خير ما يجزى محبًّا لرسوله :

فبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

والإمام البوصيرى يتابع فى ذلك قول الله تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ) :

والأخ الفاضل الأستاذ حسن الملطاوى ، يتابع الجو القرآنى ، فى الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويتحدث عن هذه المعانى التى ذكرناها . . . يتحدث

عنها فى استفاضة وفى دقة ، ويتتبع القرآن الكريم فيما ذكره عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، تتبع الرجل المؤمن الدقيق ، الذى مارس الحياة الروحية ممارسة العابد المتبتل ، فآتاه الله فقهًا فى الدين وفهمًا فى كتابه الحكيم .

والأستاذ حسن الملطاوى من هؤلاء الذين اتجهوا إلى الله فى صدق ، ووقفوا حياتهم للدعوة إليه بالقول وبالسلوك ، فمنحه الله سبحانه وتعالى ، فهماً فى المجالات الروحية لا تتاح إلا لمن أخلصوا وجههم لله سبحانه .

ونحن نغتبط كل الاغتباط ، بأن وفقه الله تعالى للكتابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم . . . فإنه من خيرة هؤلاء الذين يعالجون هذا الموضوع .

وليس هذا بأول شىء كتبه الأستاذ حسن الملطاوى ، فى التوجيه الروحى ، أو البحث الدينى ؛ فقد كتب من قبل عن التصوف ، وعن الذكر ، وعن السيدة خديجة رضوان الله عليها ، وكتب فى الفقه على مذهب الإمام مالك . . . وهو دائم العمل لخدمة الإسلام بكل ما يستطيع .

وكتابه هذا يأتى قمة من القمم الشامخة ، فى مجال الهداية إلى الله ، وفى مجال الدعوة إلى التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإننا لنرجو له التوفيق الدائم ، والعمل المستمر . . . لخدمة دين الله ودعوة رسوله . . .

ونرجو الله سبحانه وتعالى، أن يثيبه أحسن الثواب ، وأن يجزيه خير الجزاء ، وأن يوفقه دائمًا إلى الصراط المستقيم .

عبد الحليم محمود

obeikandl.com

مقدمة

الحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام فى أكمل صورهما على سيدنا محمد الذى ختم الله به المرسلين ، وجعله رحمة للعالمين ، وهدى به إلى الحق وإلى صراط مستقيم . . . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ، ورضى الله أحسن الرضا عن آله الأطهار الأخيار ، وعن صحبه الكرام الأبرار ، وعمن والاهم بإحسان إلى يوم الدين ، أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

أما بعد . . .

فإن الكتابة فى شأن سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلة وصعبة ، أما سهولتها فتتأتى من سعة مواردها ، وكثرة مصادرها ، وأما صعوبتها فتنشأ من سمو قدره ، وعلو مقامه ، فيجد الكاتب مادة الكتابة غزيرة فى سيرته العاطرة ، لكنه مهما كتب وأبدع يرى ما كتب بعيداً عن تحديد صورته الحقة ، فيخجل من وضعه ، ويخشى أن يكون مسيئاً على غير ما أراد ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن ذلك ليس راجعًا إلى قصور فى استعداده ، وإنما يرجع إلى عظم المكان والمكين ، وكذلك كان شأن من سبقوه على كثرتهم ، فيلمس عذره وعذرهم ويقول ما قالوه :

فبالغ وأكثر لن تحيط بوصفه وأين الثريا من يد المتناول

ويعلّل نفسه بأن ما قاله إنما كان بلسان الحب والتقدير ، تبصرة وذكرى لمثله من المؤمنين المحبين ، ويتمثل قانعًا فيقول :

وقد كفانى أننى محب وأن المـ ـرء مع من أحب يحشر

وقد كنت حاضرت منذ عشر سنوات بنادى التجارة وكان موضوع المحاضرة : « رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم » .

وختمت المحاضرة بقولى :

ولا أبرح مكانى هذا قبل أن أتقدم لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخالص

التحية والإعظام ، وببالغ اعتذارى من قلة جهدى فيما تحدثت به عن مقامه الكريم ، طامعًا أن يحمل قصورى على رأفته ورحمته بالمؤمنين .

وأرانى مضطرًّا فى مستهل كتابى هذا أن أكرر ذلك القول وأنا موقن بقبول عذرى واعتذارى ، لأنه صلى الله عليه وسلم أجدر من قبل المعذرة ، وأغضى عن قصور استدعته الضرورة ، وقد كان من شمائله ألّا يرد سائلا أو يخيب رجاء .

وقد كان لتلك المحاضرة أثر فى نفوس السامعين ، وكنت قد نهجت فيها نهجًا فيه شىء من التجديد ، وعدم التقيد بالتقليد ، فى الآيات التى قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عوتب فيها ، وألهمنى ربى من عطائه ، أن أنفى العتاب من نصوص القرآن الكريم ، وأربط القصة الواحدة برباط الآيات المتفرقات ، فتظهر الصورة فى الحادثة الواحدة متكاملة صافية لا شية فيها ، وقد أبدى لى استحسانه لما قرأ بعض أصحاب الرأى من القراء الكرام .

وقد تشرفت بعد ذلك بزيارته صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة ، واستأذنته وأنا بين يديه أن أكتب هذا الكتاب ليتم به ما بدأته بالمحاضرة المذكورة ، ومرت الأعوام دون أن أكتب شيئًا ، حتى أسعدنى الله برؤياه صلى الله عليه وسلم فى المنام فى فجر الاثنين ٥ من شوال ١٣٨٦ هـ (الموافق ١٦من يناير ١٩٦٧) — وتتلخص الرؤيا المباركة السعيدة فى أننى كنت والأخ الصالح الأستاذ توفيق أبو علم الوكيل الأول لوزارة العدل فى الدور الثانى من منزل، وجاء من يبشرنا بأن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سيشرفنا بزيارة ، فأسرعنا بالنزول لاستقباله ، فلما دخل وأشرقت أنواره البهيّة وطلعته الزكيّة ، قبلت يده الشريفة وذكرت له اسمى ، وأحسست أننى فى جانبه صغير جدًّا فى نفسى ، ثم استيقظت .

وقد قابلت بعدها بمدة زميلى الفاضل الأستاذ توفيق أبو علم عند الكعبة المشرفة من عامين ، وكنّا معتمرين ، فقصصت عليه الرؤيا وبشّرته بها ، فسرّته كل السرور ، ثم التقينا فى رمضان الفائت فى الحرم النبوى الشريف (وكنت أخبرته بعزمى على كتابة هذا الكتاب بعد أن ألقيت المحاضرة المذكورة) فإذا به يقول لى ونحن فى الحرم النبوى الشريف : ماذا تم فى الكتاب ؟ إننا ننتظر صدوره فى شوق شديد ، فتربّطت بين قوله هذا وبين تذكّر الرؤيا الشريفة ، وقلت فى

نفسى : لعل تذكيرى بالكتاب ونحن فى الرحاب النبوى يتضمن إذنًا نبويًّا بالكتابة ، وقد تفاءلت باسم الزميل توفيق أبو علم ، وأملت أن يصحبنى التوفيق فى الكتابة عن صاحب العَلَم صلى الله عليه وسلم ، وبخاصة أن الزميل توفيق قد وفق فألف كتابًا قيمًا عن : « أهل البيت » وتمّ طبعه ونشره ؛ وعدت من المدينة المنورة ، فبدأت الكتابة فى شوال الفائت ، وتيسر لى ما يقرؤه القارئ فى هذا الكتاب الذى بين يديه ، ولعل التوفيق حالفنى فيه كما أملت . فتكون الرؤيا قد تحققت فى التقائنا السعيد معًا بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عالم التأليف الذى يتصل به وبأهل بيته الكرام ، ويكون تفضله بالزيارة فى الرؤيا علامة القبول بإذن الله .

وفى غضون الأيام القليلة الفائتة ، بشَّرنى تلميذى الصالح الدكتور عجمى حسين عجمى برؤيا مباركة ، رأى فيها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له كلامًا يقرّظ فيه الكتاب ، وكان يذكر الكلام فى أثناء الرؤيا ، ولكنه نسيه بعد استيقاظه ، وأخذت من رؤياه بشرى الإذن بالكتابة ، وبشرى أخرى بالقبول ، والهدية على قدر مهديها ، وليست على قدر المهداة إليه صلى الله عليه وسلم .

ومع صعوبة المرتقى فى الكتابة عنه ، والإحاطة به صلى الله عليه وسلم ، فإن اللجوء إلى كتاب الله تعالى أنار لى سبيل الاهتداء بأنوار القرآن الكريم إلى معالم الطريق ؛ ولئن كان القرآن الكريم واسع الأقطار ، عميق البحار ، إن مباحث الكتاب ازيَّنت بأنواره القدسية المشعة ، وهو ما يعطى القارئ سعادة روحية ، فى أن يستمتع بها ، ويغترف منها مشربًا هنيئًا سائغًا للشاربين ، على قدر ما استطعت مناولته من تلك الأقطار الواسعة والبحار العميقة ، ولاسيما أنى قصدت أن يكون الكتاب دعامة من دعائم التربية الإسلامية الصحيحة للقارئين ، بما ضمنته فى كل مناسبة من أقوال أسلافنا الصالحين ، وإرشادات أئمتنا العارفين ، إلى جانب القصد الأصلى من عرض صور مختلفة مما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فى كتاب الله عز وجل ، ذلك الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى أيد الله به الرسالة المحمدية على مر العصور والدهور ، فكان أخلد المعجزات وأبقاها على الزمن ، كما كان الحصن الحصين للمسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

وإذا رآنى القارئ الكريم قد أطلت قليلا فى بعض المواطن التاريخية فليعذرنى، فإنى أردت بالتطويل أن أرد القارئ إلى الفهم الصحيح فى الموقف الدقيق ، الذى خاض فيه الخائضون ،ولج فيه المفترون من المستشرقين، لأغراض دنيئة ، قصدوا بها تشويه الحقائق وتلبيسها على الناس لحاجة فى نفوسهم أضمروها كيداً للإسلام والمسلمين ، وقد يتأثر بما كتبوا بعض الناشئين من المؤمنين — عن حسن نيّة — إذا لم يكن ملمًّا بحقيقة تلك المواقف التى تتصل بسيد المرسلين وأطهر المطهرين، فى حياته أو بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

كذلك أرجو أن يعذرنى القارئ الكريم إذا رآنى قد خالفت ما جاء فى بعض التفاسير ، مما لا يليق به صلى الله عليه وسلم ، أو بإخوانه المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فعصمة الأنبياء والمرسلين عندى مؤكدة بيقين ، وما نسب إليهم من الوقائع لا يحمل الأمر فيه على ما يقع منا من ذنوب أو مخالفات بحجة أنهم بشر ، فهم حقيقة بشر ، ولكنهم مصطفون بعلمه سبحانه ، ومطهرون بفضله تعالى ، وقد أثبت لهم الله فضلهم فى القرآن الكريم ، فلننظر فى أمورهم بعين ذلك الفضل ، ولا ننقصهم منه شيئًا ، ولا يغيب عنا لحظة واحدة قوله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ أو قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ أو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ، أو قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وإنى أحمده سبحانه وتعالى إذ وجدت عونه فيما كتبت ، وعلامة الإذن التيسير كما يقول العارفون ، كما أن المعانى التى ألهمنيها ربى وجدتها بعد ذلك مقررة فيما وقع لى من مراجع العلماء العارفين ، وتوارد خواطرى ، واتفاقها مع خواطرهم ، إنما هو بركة من بركات سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد غمرتنى بنعمة الله طوال حياتى ، ولست أنكر ذلك لأنه تحدث بنعمة الله ، كما لا أنكر أنى محب له بكل ذرة من ذرّاتى ، وبكل نَفَس من أنفاسى ، وبكل إحساس من أحاسيسى ، وكنت أقول لنفسى وأنا أكتب ذلك الكتاب :

ما شئت قل فيه فأنت مصدّق فالحب يقضى والمحاسن تشهد

وكنت أقول ذلك مع تصديقى لما قاله إمامنا البوصيرى رضى الله عنه فى همزيته :

إن من معجزاتك العجز عن وصفـــــك إذ لا يحدّه الإحصاء

ولقد عذرت سادتنا الصحابة الكرام ، وعلى رأسهم الأربعة الكبار سادتنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، حين طاشت عقولهم بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى هدد عمر أن يضرب بسيفه من يقول إنه مات ، وخرس عن الكلام عثمان ، وأخذ الإمام علىّ يروح ويجىء ، وكان أثبتهم أبا بكر ، ولكنه مع ثباته وتمكينه جاء وعيناه تهملان ، وزفراته تتردد ، وغصصه تتصاعد وترتفع ، فدخل على النبى صلى الله عليه وسلم فأكب عليه ، وكشف الثوب عن وجهه ، وقال : طبْتَ حيًّا وميتًا ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء ، ولو أن موتك كان اختياراً ، لجدنا لموتك بالنفوس . اذكرنا يا رسول الله عند ربك ، ولنكن من بالك .

أما السيدة الزهراء ، وهى أحب بناته إليه صلى الله عليه وسلم ، فقالت راضية مرضية فيما رواه البخارى رضى الله عنه : يا أبتاه ، أجاب ربًّا دعاه ، يا أبتاه ، من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه .

وأما أنس بن مالك ، وهو خادمه الأمين رضى الله عنه ، فقد قال فيما رواه الترمذى رضى الله عنه : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شىء ، فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أظلم منها كل شىء ، وما نفضنا أيدينا من التراب وإنا لفى دفنه حتى أنكرنا قلوبنا

وأما حسان بن ثابت رضى الله عنه وهو شاعره الخاص فقد قال :

كنت الســـواد لنـــاظرى فعمى عليـــك النـــاظر
من شاء بعـــدك فليمـــت فعليـــك كنت أحـــاذر

وتلك الكلمات على قلتها تريك أثر محبته صلى الله عليه وسلم فى المحيطين به عن قرب ، والواقفين على أقواله وأفعاله وأحواله ، وقد أوجزت السيدة عائشة وصفه، وهى

الفقيهة الراشدة ، واللبيبة العاقلة ، والزوجة الأثيرة ، بنت الصديق الأثير مولانا أبي بكر وهو أول المؤمنين إسلاماً من الرجال ، وأول الخلفاء الراشدين ، والإمام الأكبر ، والعلم الأشهر ، فقالت : كان خلقه القرآن .

وحسبك من وصفها هذا أنه صلى الله عليه وسلم استنار بنور القرآن، وتأدّب بأدب القرآن ، وتحلّى بأحكام القرآن ، فكان أفضل البشر وأكملهم على الإطلاق ، كما كان خير الخلائق أجمعين من أهل السموات وأهل الأرضين ، فهو صفيّ ربه الأصفى ، وحبيبه الأسمى ، ومختاره الأوفى ، ومجلاه الأعلى ، ومصطفاه الأولى ، وإن سألت دليلا على ذلك فاقرأ قوله تعالى : ﴿وإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1] فهو كما ترى ميثاق ربّانيّ بزعامته صلى الله عليه وسلم للرسل أجمعين .

وإذا رأيت أن تتذكر بعض شمائله التي حلاه الله بها وطبعه عليها ، فإليك ما قال صاحب تحفة الأخيار ، سيدى العارف بالله أبو عبد الله الأنصارى التونسى المالكى ، المتوفى فى سنة ٨٩٤ هـ :

« كان عليه الصلاة والسلام أكمل العالمين خَلْقاً وخُلُقاً ، وتذكّرْ وفور عقله وذكاء لُبِّه ، وقوة حواسه ، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركته ، وحسن شمائله ، وشرف نسبه ، وكرم بلده ، وحلمه واحتماله ، وعفوه مع قدرته ، وصبره على ما يكره، وجوده وكرمه ، وسخاءه وحياءه ، وشجاعته وسماحته ، ونجدته وفضيلته ، وصفاء مودته ، وبذل نصحيته ، وحسن عشرته وآدابه ، وشفقته ورحمته بجميع الخلائق ، وحرصه على إيمانهم ، ووفاءه وحسن عهده ، وصلة رحمه ، وتواضعه على قدر رفعته وعلو منصبه ، وعدله فى سيرته ، وأمانته وعفته ،وصدق لهجته ، ووقاره وصحبته، وتأدبه ومروءته ، وحسن هديه ، وزهده فى الدنيا ، وخوفه من ربه ، وطاعته له ، وشدة عبادته ، وعلمه بربّه ، وشكره وإنابته إلى ربه ، وحسن قيامه بحقه ، وجميل

---

(١) سورة آل عمران – الآية ٨١ .

رجائه ، وصدق يقينه ، وتوكله على ربه ، ومحبته فيه ، وشدة إيمانه بغيبه ، وكثرة صلاته وصيامه ، وشكره وإعطاءه من مال ربه » .

فما من محاسن الأخلاق صفة إلاّ وقد حازها ، وما من درجة من درجات اليقين إلاّ كان أساسها .

أقول ولا تطمع أن تحيط بها عدًّا ، أو أن تسردها سرداً ، فإنها أكثر من أن تحصى ، وأبعد من أن تستقصى .

وصدق إمامنا البوصيرى إذ يقول :

فإن فضل رسول الله ليس له حــدّ فيعرب عنــه ناطق بفم

كما صدق سلطان العاشقين ابن الفارض حين قال :

أرى كل مدح فى النبى مقصراً وإن بالغ المثنى عليه وأكثرا

إذا الله أثنى بالذى هو أهله عليه فما مقدار ما يمدح الورى

وإذا أردت أن تعرف كيف اختاره الله على علم ، فاقرأ ما رواه ابن عباس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قسم الخلق قسمين ، فجعلنى من خيرهم قسماً ، وذلك قوله : (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ) ، (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ) ، فأنا من أصحاب اليمين ، وأنا خير أصحاب اليمين ، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلنى فى خيرها ثلثاً ، وذلك قوله تعالى : (وَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحَابُ الميمنة * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) . فأنا من السابقين ، ثم جعل الأثلاث قبائل ، فجعلنى فى خيرها قبيلة ، وذلك قوله تعالى : (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) ، فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتاً ، فجعلنى فى خيرها بيتاً ، فذلك قوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) » .

أرأيت كيف كان صلى الله عليه وسلم خياراً من خيار من خيار ، وكيف سعدت أمته بهذا الخيار ، فكانت أمته خير أمة أخرجت للناس ، وحظ الوريث

من حظ مورثه ، وما أسعدنا به صلى الله عليه وسلم ، فكل فضل جاءنا فى ديننا ودنيانا ، فإنما جاءنا ببركاته ، ومن فيض جود الله عليه ، ورحم الله سيدى العارف الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى إذ يقول :

أنشاك نوراً ساطعًا قبل الورى ... فرداً لفرد والبرية فى العدم
ثم استمد جميع مخلوقـــاته ... من نورك السامى فيا عظم الكرم
تلك المعارف والعوارف فيهمو ... من بحر منتك العميمة سيب يم
بالله صل حبل الرجـــاء تعطفاً ... أنا ضيف جودك يا إمام أولى الكرم
جُدْ للضعيف بمبتغـــاه فإنـــه ... ما للضعيف سوى رحابك ملتزم
جد لى فإن خزائن الرحمن فى ... يدك اليمين وأنت أكرم من قسم

وشاهـده فى ذلك قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) .

وهكذا شاء الرحمن الرحيم أن يرحم العالمين على يديه صلى الله عليه وسلم ، وما خص عالماً دون عالم ، بل نال كل عالم من العالمين ، ما شاء الله له من تلك الرحمة ، وحق لإمامنا البوصيرى إذن أن يقول :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ... واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

ولا تحسبن أن عطاء الله له وقف عند أمور الدنيا الفانية ، فقد أعطاه المقام المحمود فى الآخرة بقوله تعالى : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُودًا) ، وهو مقام الشفاعة للخلائق ، فى الانصراف من الموقف إلى الحساب ، ثم يشفع بعد ذلك للمؤمنين فى دخولهم الجنة ابتداء ، أو فى خروج عصاتهم من النار ، كما هو معلوم من حديث الشفاعة ، فكل رسول كريم حين يعاين أهوال القيامة يقول : نفسى نفسى ، ويقول رسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم : « أمتى أمتى » ، وحين يستشفع الناس به يقول : « أنا لها » ، وهو ما يشير إليه سيدى الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه فى قصيدته المستجيرة بقوله :

فالأصل أنت أبو الوجود ومنك فا ... ض الجود فى الدنيا وفى الأخرى وعمْ
والخلق فرع أنت أصل وجوده ... والفرع مرجعه إلى الأصل الأشمْ

فلذا إليك الخلق تفزع كلهم فى هذه الدنيا وفى اليوم الأهم
وإذا رجوك غدًا تقول أنا لهـا واليوم قمت بأمرهم حتى استتمْ

وسيقول له رب العالمين : اشفع تُشفّع ، وسل تُعط ، وقُلْ يُسمع لك ، فما أعظم شأنه فى دنياه وأخراه صلى الله عليه وسلم .

وأود أن ألفت النظر إلى أن ما يجده القارئ من المفاضلة بينه صلى الله عليه وسلم وبين إخوانه المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ليس المقصود منه الانتقاص من أقدارهم ، حاشا ، فإن أقدارهم فى محلها الرفيع الذى أراده الله ، كما نطق بها كتاب الله ، وإنما هو بيان لمقامه بينهم صلى الله عليه وسلم كما جلاّه القرآن الكريم ، ونحن ما فضلناه عليهم ، ولكن الله فضله ، فبيّنًا للقارئ كيف فضله الله فى آياته البيّنات ، أما قوله صلى الله عليه وسلم : لا تفضلونى على يونس ابن متى ، فإنه نهى عن انتقاص أحدهم ، وبخاصة أنه جاء فى شأن سيدنا يونس عليه السلام .

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وقد يسىء القاصر فهم الموقف فينتقص جهلا من اجتباه ربه وجعله من الصالحين ، وإذا تجرأ جهلا على انتقاص واحد من المرسلين ، تجرأ على انتقاص غيره وكان من الغاوين ، ونعوذ بالله من جهل الجاهلين وضلال الضالين .

وسيرى القارئ الكريم فيما يقرأ مفاضلة لسيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وهى مفاضلة بالحق ، الذى جعله الله على لسان عمر وقلبه بدعوته صلى الله عليه وسلم ، ولو أنه رضى الله عنه فهم من الحديث النهى المطلق ما فاضل، ولكنه فهم الحديث على وجهه ، فصوّر مقام الرسول الأعلى بين المقامات العالية ، فأعطى كلّ ذى حق حقه ، ولم يبخس منه شيئًا .

وليتنزه القارئ بعد ذلك فى رياض الكتاب المونقة ، ويستنير بشمسه المشرقة فى رعاية من الله ورسوله ، وفى أمن وإيمان ،وليعلم من أمر رسول الله صلى الله عليه

وسلم ما جهل ، أو يتذكَّر من أمره ما نسى ، وليكن همه أن يكون مسلمًا صادقًا ، جديراً بالانتساب إلى الإسلام الذى جاء به ذلك الرسول الأعظم ، فدعا إليه بقوله وفعله وحاله ، وجاهد فى سبيله بنفسه وماله ، فى الحرب والسلم ، فى عزم لا يلين ، وقوة لا تهى ، وهمة لا تفتر ، إيثاراً لله على ما سواه ، ومن عرف ربه هان عليه ما يبذل فى سبيله .

وليكن لك أيها القارئ برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة كما نصحك الله ، فتخلق بأخلاقه ، واتسم بصفاته ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالفقه عنه ، والاستماع منه ، والطاعة له ، فإنك إن فعلت ، سعدت مع السعداء فى دنياك وأخراك ، كما سعد السابقون الأولون ، والآخرون الصالحون ، وفى مقدمتهم الخلفاء الراشدون ، وتأمل فيما نبهنا إليه أهل الفراسة والفطنة حين قالوا : إن الله تعالى جعل لرسوله مناسبة تشريف حين جعل حروف : « لا إله إلا الله » اثنى عشر حرفًا ، وجعل حروف « محمد رسول الله » اثنى عشر حرفًا ، وسرّ هذه المناسبة كانت لهؤلاء الخلفاء الراشدين أيضًا ، فاسم « أبو بكر الصديق » ، واسم « عمر بن الخطاب » واسم « عثمان بن عفان » ، واسم « على بن أبى طالب » ، يشمل كل منها اثنى عشر حرفًا ، وهى مناسبة إرضاء الله فى التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك ما يكشف لك عن سر سعادتهم ، لكمال مناسبتهم فى أخلاقهم للحضرة النبوية الشريفة ، وقد شهد الله لها بالكمال فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وإن أردتَ ضماناً بالسعادة فهاكه من ربك لا منِّى ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً ۝ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً ﴾[1] .

هذا وأرى لزامًا علىَّ أن أتقدم بجزيل شكرى لصديقى الوفى والعلامة التقى الدكتور عبد الحليم محمود ، إذ تفضل فقدم الكتاب لقرائه وزكّى الكاتب وما كتب ، مما أعتز به ، وأطمع أن أكون أهلا لحسن ظنه وجمال وصفه ، فإنه

---

(١) سورة النساء : الآيتان ٦٩ و ٧٠ .

من علمائنا العاملين وأئمتنا العارفين الذين ندخرهم للدنيا والدين .

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لأحبابى السادة المخلصين الأستاذ سعيد الأنصارى المدير العام بمصلحة الضرائب ، والمهندس على حافظ بوزارة الصناعة ، والأستاذ عبد الحميد أحمد الملطاوى المراقب العام للإيرادات بالميزانية، لما بذلوه من مجهودات حميدة فى مراجعة أصول الكتاب مما أغنانى عن حمل عبء المراجعة وحدى .

فاللهم كافئ الجميع عنى يا رب العالمين . والسلام على من اتبع الهدى .

الخميس ١٢ من ربيع الأول ١٣٩٢ هـ
٤ من مايو ١٩٧٢ م

المؤلف
حسن كامل الملطاوى

obeikandl.com